٢ ـ صعاليك الصحافة . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

وغاب شيخُنا أبو عثمان عند رئيس التحرير بعضَ ساعةٍ ثم رجع تدور عيناه فى جَحاظَيْهما وقد اكفهرّ وجهُه وعَبَس كأنما يجرى فيه الدمُ الأسود لا الأحمر ، وهو يكاد ينشقّ من الغيظ وبعضُه يَغلى فى بعضه كالماء على النار . فما جلس حتى جاءت ذبابتان فوقعتا على كَنَفَىْ أنفه تُتِمّان كآبةَ وجهه المشوّه ، فكان منظرهما من عينيه السَّوداوين الجاحظتين منظرَ ذبابتين وُلدتا من ذبابتين . . .

وتركهما الرجل لشأنهما وسكت عنهما. فقلت له : ياأباعثمان هاتان ذبابتان ويقال إن الذباب يحمل العدوَى

فضحك ضحكةَ المَغيظ وقال : إن الذباب هنا يخرج من المطبعة لا من الطبيعة . . . فأكثر القول فى هذه الجرائد حشَرات من الألفاظ : منها ما يُستقذَر ، وما تنقلب له النفس ، وما فيه العدوى ، وما فيه الضرر ؛ وما بدّ أن يعتاد الكاتب الصحافى من الصبر على بعض القول مثلَما يعتاد الفقير من الصبر على بعض الحشرات فى ثيابه . وقد يريده صاحب الجريدة أو رئيس التحرير على أن يكتب كلاماً لو أعفاه منه وأراده على أن يجمع القمل والبراغيث من أهدام الفقراء والصعاليك بقدر ما يملأ مقالة . . . كان أخفَّ عليه وأهون ، وكان ذلك أصرحَ فى معنى الطلب والتكليف (١) .

وكيفما دار الأمر فانّ كثيرا من كلام الصحف لو مسخه الله شيئا غير الحروف المطبعية ، لطار كله ذبابا على وجوه القراء .

قلت . ولكنك يا أبا عثمان ذهبت مُستَطلِقاً إلى رئيس التحرير ورجعت متعقّدا فما الذى أنكرت منه ؟

قال : « لو كان الأمر على ما يشتهيه الغريرُ والجاهلُ بعواقب الامور لبطل النظرُ وما يشحذ عليه وما يدعو اليه ، ولتعطلت الأرواحُ من معانيها والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها »(١) . هناك رجل من هؤلاء المعنيّين بالسياسة كما هى السياسة فى هذا البلد . . . يريد أن يخلق فى الحوادث غير معانيها ، ويربط بعضها إلى بعض بأسباب غير أسبابها ، ويخرج منها نتائج غير نتائجها ، ويلفّق لها من المنطق رُقَعاً كهذه الرقع فى الثوب المفتوق . ثم لا يرضى الا أن تكون بذلك ردّا على جماعة خصومه وهى ردعليه وعلى جماعته ، ولا يرضى مع الرد الا أن يكون كالأعاصير تدفع مثل تيار البحر فى المستنقع الراكد

ثم لم يجد لها رئيس التحرير غير عمك أبى عثمان فى لطافة حسّه وقوة طبعه وحسن بيانه واقتداره على المعنى وضده ، كأن أبا عثمان ليس عنده ممن يحاسبون أنفسهم ولا من المميِّزين فى الرأى ، ولا من المستدلّين بالدليل ، ولا من الناظرين بالحجة . وكأن أبا عثمان هذا رجلٌ حُروفى . . . كحروف المطبعة ترفع من طبقة وتوضع فى طبقة وتكون على ماشئت . وأدنى حالاتها أن تمد اليها اليد فاذا هى فى يدك

وأنا امرؤٌ سيدٌ فى نفسى وأنا رجلُ صدق ولست كهؤلاء الذى لا يتأثّمون ولا يتذمّمون ؛ فإن خضتُ فى مثل هذا انتقض طبعى وضعفت استطاعتى وتبيّن النقصُ فيما أكتب ، ونزلتُ فى الجهتين فلا يطّرد لى القول على ما يرجو ولا يستوى على ما أحب . فذهبتُ أناقضُه وأردّ عليه ؛ فبُهِتَ ينظر إلى ويقلب عينيه فى وجهى كأن الكاتب عنده خادمُ رأيه كخادم مطبخه وطعامه هذا من هذا

ثم قال لى : يا أباعثمان إنى لأستحى أن أعنفك . وبهذا القول لم يستح أن يعنّف أبا عثمان . . . ولهممتُ والله أن أنشده قول عباس بن مرداس :

أكُلَيب ... مالكُ كلَّ يوم ظالما والظلمُ أنكدُ وجهه ملعون ...

لولا أن ذكرتُ قول الآخر :

وما بين من لم يُعطِ سمعاً وطاعةً وبين تميمٍ غيرُ حزِّ الغلاصم

« حزُّ الغلاصم » وقطعُ الدراهم ، من قافية واحدة ... وقال سعيد بن أبى عَروبة : « لأن يكونَ لى نصفُ وجه ونصف لسان على مافيهما من قبح المنظر وعجز المخبر ـ أحبّ إلى من أن أكون

(١) هذه طريقة الجاحظ فى الافراق حين يتهكم .

(١) هذه الجملة من كلام الجاحظ .

ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين » . وقال أيوب السختياني ...

وهمّ شيخنا أن يمرّ في الحفظ والرواية على طريقته ، فقلت : وقال رئيس التحرير ... ؟

فضحك وقال : أما رئيس التحرير فيقول : إن الخلابة والمواربة وتقليب المنطق هي كل البلاغة في الصحافة الحديثة ، ولهي كقلب الأعيان في معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم ، فكما انقلبت العصا حيّةً تسعى ، وهي عصا وهي من الخشب ، فكذلك تنقلب الحادثة في معجزات الصحافة إذا تعاطاها الكاتب البليغ بالفطنة العجيبة والمنطق الملوّن والمعرفة بأساليب السياسة ، فتكون للتهويل وهي في ذاتها اطمئنان ، وللتهمة وهي في نفسها براءة ، وللجناية وهي في معناها سلامة . ولو نفخ الصحافي الحاذق في قبضة من التراب لاستطارت منها النار وارتفع لهبُها الأحمر في دخانها الأسود . قال : وإن هذا المنطق الملوّن في السياسة إنما هو إتقانُ الحيلة على أن يصدقك الناس ، فان العامة وأشباه العامة لا يصدّقون الصدقَ لنفسه ولكن للغرض الذي يساق له ، إذ كان مدار الأمر فيهم على الإيمان والتقديس ، فأذقهم حلاوة الإيمان بالكذب فلن يعرفوه إلا صدقا وفوق الصدق ، وهم من ذات أنفسهم يقيمون البراهينَ العجيبة ويساعدون بها من يكذب عليهم متى أحكم الكذب ، ليحققوا لأنفسهم أنهم بحثوا ونظروا ودققوا ...

ثم قال أبو عثمان : ومعنى هذا كله أن بعض دُور الصحافة لو كتبت عبارة صريحة للاعلان لكانت العبارة هكذا : سياسة للبيع ....

* * *

قلت : ياشيخنا فانك هنا عندهم لتكتب كما يكتبون ، ومقالات السياسة الكاذبة كرسائل الحب الكاذب تقرأ فيها معان لا تكتب ، ويكون في عبارتها حياء وفي ضمنها طلبُ ما يُستحى منه ... والحوادث عندهم على حسب الأوقات ، فالأبيض أسود في الليل والأسود أبيض في النهار ، ألم تر إلى فلان كيف يصنع وكيف لا يعجزه برهان وكيف يخرّج المعاني ؟

قال : بلى نعم الشاهد هو وأمثاله . إنهم مصدّقون حتى في تاريخ حفر زمزم

قلت : وكيف ذلك ؟

قال : شهد رجل عند بعض القضاة على رجل آخر ، فأراد هذا أن يجرح شهادته ، فقال للقاضي : أتقبل منه وهو رجل يملك عشرين ألف دينار ولم يحجّ إلى بيت الله ؟ فقال الشاهد : بلى قد حججت . قال الخصم : فاسأله أيها القاضي عن زمزم كيف هي ؟ قال الشاهد : لقد حججتُ قبل أن تحفر زمزم فلم أرها ...

قال أبو عثمان : فهذه هي طريقة بعضهم فيما يزكى به نفسه ؛ ينزلون إلى مثل هذا المعنى وان ارتفعوا عن مثل هذا التعبير ؛ إذ كانت الحياة السياسية جدلا في الصحف لنفي المنفي وإثبات المثبت ، لاعملا يعملونه بالنفي والاثبات . ومتى استقلت هذه الأمة وجب تغيير هذه الصحافة وإكراهها على الصدق فلا يكون الشأن حينئذ في إطلاق الكلمة الصحافية إلا من معناها الواقع .

والحياة المستقلة ذات قواعد وقوانين دقيقة لا يترخّص فيها مادام أساسها إيجاد القوة وحياطة القوة وأعمال القوة ، ومادامت طبيعتها قائمة على جعل أخلاق الشعب حاكمة لا محكومة . وقد كان العمل السياسي إلى الآن هو إيجاد الضعف وحياطة الضعف وبقاء الضعف ؛ فكانت قواعدنا في الحياة مغلوطة ، ومن ثم كان الخلق القوي الصحيح هو الشاذ النادر يظهر في الرجل بعد الرجل والفترة بعد الفترة ؛ وذلك هو السبب في أن عندنا من الكلام المنافق أكثر من الحر ، ومن الكاذب أكثر من الصادق ، ومن المماري أكثر من الصريح ؛ فلا جرم ارتفعت الألقاب فوق حقائقها وصارت نعوت المناصب وكلمات باشا وبك من الكلام المقدس صحافياً ....

يا لعبادِ الله ! يأتيهم اسم الأديب العظيم فلا يجدون له موضعا في « محليات الجريدة » ؛ ويأتيهم اسم الباشا أو البك أو صاحب المنصب الكبير فماذا تشرف « المحليات » إلا به ؟ وهذا طبيعي ، ولكن في طبيعة النفاق ، وهذا واجب ولكن حين يكون الخضوع هو الواجب . ولو أن للأديب وزنا في ميزان الأمة لكان له مثل ذلك في ميزان الصحافة ، فأنت ترى أن الصحافة هنا هي صورة من عامية الشعب ليس غير ... ومن ذا الذي يصحح معنى الشرف العامل لهذه الأمة وتاريخها ـ وأكثر الألقاب عندنا هي أغلاط في معنى الشرف ... ؟

ثم ضحك أبو عثمان وقال : زعموا أن ذبابة وقعت في بارجة

(أميرال) انجليزى أيام الحرب العظمى ؛ فرأت القائد العظيم وقد نشر بين يديه درجاً من الورق وهو يخطط فيه رسما من رسوم الحرب . ونظرت فإذا هو يلقى النقطة بعد النقطة من المداد ويقول : هذه مدينة كذا ، وهذا حصن كذا ، وهذا ميدان كذا . قالوا فسخرت منه الذبابة وقالت : ما أيسر هذا العمل وما أخفّ وما أهون ! ثم وقعت على صفحة بيضاء وجعلت تلقى وَبِيَمها[1] هنا وهناك وتقول : هذه مدينة ، وهذا حصن ...

***

والتفت الجاحظ كأنما توهم الجرس يدق . . . فلما لم يسمع شيئا قال :

لو أنى أصدرت صحيفة يومية لسميتها (الأكاذيب) ، فمهما أكذب على الناس فقد صدقت فى الاسم ، ومهما أخطىء فلن أخطىء فى وضع النفاق تحت عنوانه

قال : ثم أخط تحت اسم الجريدة ثلاثة أسطر بالخط الثلث هذا نصها :

ما هى عزة الأذلاء ؟ هى الكذب الهازل

ما هى قوة الضعفاء ؟ هى الكذب المكابر

ما هى فضيلة الكذابين ؟ هى استمرار الكذب

قال : ثم لا يحرر فى جريدتى الا « صعاليك الصحافة » ، من أمثال الجاحظ . ثم أكذب على أهل المال فأمجد الفقراء العاملين ، وعلى رجال الشرف فأعظم العمال المساكين ، وعلى أصحاب الألقاب فأقدم الأدباء والمؤلفين . و . . .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان الى رئيس التحرير . . .

لها بقية (طنطا) **مصطفى صادق الرافعى**

(١) وفيم الذباب هو . . . اي هذه النقط السود التى يحدثها

وحى القلم

كثرت عندنا كتب إخواننا من فقراء الطلبة . منهم من يريد الكتاب بقيمة الاشتراك ، ومنهم من يريده بنصف الثمن ، ومنهم من يطلبه بالدعوات الصالحات . . فأعتذر للجميع بأنى لم أنفق على طبع الكتاب وإنما أنفقت عليه لجنة التأليف والترجمة والنشر . ولو كان (بولاناكي) الغنى اليوناني المشهور يعرف الأدب العربي ، لرجوته لهم فاشترى واهدى إليهم .

ولكن بولاناكي لايعرف الأدب العربى ، ومثله جناكليس وماتوسيان . ورحمة الله على اغنياتنا الأموات الذين نعرفهم وزارة الأوقاف واطال الله بقاء الأحياء الذين لا اعرفهم انا ولا يعرفهم احد من المؤلفين . . .

الرافعى

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسى الفونس كار

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

(٢)

زهرة السلوان

حذار من زهرة السلوان ! إنها زهرة يصيبك بهاؤها ويقتلك عبيرها . إنها لزهرة تنشح الجمال وتتكلف الابتسام ، تحدجك بلفتات ساحرة لتستهويك وتقول لك : ـ تعالَ الىَّ ، ففىَّ الإخلاص وفىَّ العزاء .

رأيت رجلا اقتطف زهرة السلوان من حقول الحياة بعد أن عرفته هائماً تتقد فى قلبه النار التى لا تنير دون أن تحرق ، فاصبح خلىَّ البال يحدّق فى من كان يهواها فلا يفرح ولا يحزن ، لا يلذه شيء ولا يتألم لشيء

ولكنَّ السلوان لا يدخل وحده إلى القلب ، بل يجر معه رفيقه الملازم له : يجر معه الضجر والملال . ومن اقتطف زهرة السلوان يسير حزيناً مطرقاً بالأرض لانه لن يحب بعد ...

من سطا السلوان عليه فهو طريدٌ لا قرار له

من ينس مرةً فلن يحب أبدا

أرى الخلىَّ يقطع السهول ويتسلق الروابى فيقف متضجراً ينصت إلى تغريد الأطيار ويسرّح الطرف فى أزهار الخائل وجداول المروج متسائلا أمام الطبيعة العاشقة عما أفقده عشقه ، فتجيبه الطبيعة : لأنك قطفت زهرة السلوان

ويبكى هذا الطريد زماناً كان يبكى فيه إذ كان شقياً ، ولكنَّ قلبه لم يكن ساكناً لا حرارة فيه ولا خفوق

إن من الأمراض مايفوق ألمُ شفائها آلامَ استفحالها

دلنى على منابت زهرة السلوان لأجتنبها ، قل لى أين تنوّر لأحوّل طريق عنها

هى زهرةٌ صفتها اسم لها ؛ تنبت فى الأماكن الموحشة المقفرة ، وقد تنمو فى المدن بين الحركة والضجيج ، غير أن جرثومتها عالقة فى عالم الخيال فى أسرار حياة الموت وموت الحياة

هى زهرة الضجر والملال والعذاب ، زهرةُ السلوان